المناقل : أم ذكرى

أميمة عبدالوهاب

(آخر لحظة) كانت هناك ..

مشاهد من لقاء عائد من غوانتانامو بأسرته

أم مصطفى هرولت قرابة كيلومتر إستقبالاً لإبنها
إبنه لم يتعرف عليه ووالده وشقيقه أغمى عليهما فرحاً

خلنا أن القلوب باتت صلدة والمشاعر أصابها التبلد من كثرة ما نرى حولنا من مآس تحيط بالمسلمين من كل ناحية وما نشهده من ظلم وتعذيب وتقطيع وقتل وتشريد لهم في بقاع الأرض.. و أن المصائب صنوف والعناء واحد.. هانحن نقف على ماساة أحد العائدين من المعتقل الامريكي غوانتامو، هو مصطفى ابراهيم مصطفى .

رافقت «آخر لحظة» البطل العائد وهو يتوجه الى قريته أم ذكرى بمحلية المناقل لتبحث عن سيرته في صدور الرجال وتقف على حجم المعاناة التي كابدها وأهله طيلة سبع سنوات. وتعيش لحظات اللقاء بينه وبين أسرته وعشيرته .

● مصطفى ابراهيم مصطفى وأسرته

*** من هنا .. بدات المأساة**

رحل مصطفى ابراهيم مصطفى في العام ٢٠٠١م الى باكستان بعد أن ترك دراسته بكلية الآداب جامعة الخرطوم بحثاً عن وضع أفضل واختصاراً للزمن مفارقاً قريته الصغيرة (أم ذكرى) وتاركاً زوجته السيدة احسان الأمين شابة في مقتبل العمر وبنته خولة التي كانت ذات خمسة أعوام حينها وقد بلغت الآن من العمر اثني عشر عاماً وتدرس بالصف السابع أساس وعاتقة التي كانت في الثالثة من عمرها وهي الآن تدرس بالصف الخامس وصفوان الذي يدرس بالمستوى الثالث أساس الآن ،أما آخر العنقود طلحة فقد فارقه رضيعاً والآن يدرس بالصف الثاني أساس.. ترك مصطفى والديه ليعود إليهما وقد وهن العظم منهما وبلغا من العمر عتيا، والدته الحاجة بتول ووالده الحاج ابراهيم مصطفى كانا يصارعان الأحزان والاشواق الملتهبة لفقد أحد ابنيهما اللذين خرجا بهما من الدنيا مع شقيقات ثلاث ، وبغياب مصطفى وهو العائل لأسرتيه الصغيرة والكبيرة فقد عانت الأسرتان ما عانتا..فقد أثقل حمل الزراعة كاهل شقيقه التجاني وهو يحرث ويحصد وحده ليقف على أمر الأسرة.. وقال لنا دكتور الوسيلة سعيد ابن عمة مصطفى إن والديه قضى عليهما الحزن وهما يبكيان ليل نهار ولا يعرفان النوم إذ فارقهما بفراق مصطفى.. وظلت زوجته وصغارها خلال تلك السنوات يعانون مرارة الترقب يتقلبون بين الامل والياس والخوف من نهاية المصير.. شهد له ولاسرته نصر الدين بابكر معتمد محلية المناقل مجلس تشريعي الولاية بالاستقامة والعفة وأسرته كانت مثالاً للأسرة الكريمة الشريفة الصابرة رغم ضنك الحال الذي عاشته وشهدوا لهم أيضاً بالاخلاق والايمان وقال لي المعتمد إنهم في حكومة الولاية كانوا يودونهم ويقدمون لهم ما تيسر من العون وأضاف نسال الله أن يعيننا على تعويضه ولو عاماً من سنين الاحتجاز..

*** صفاته :**

شخصية مصطفى وصفاته كانت أحد أسباب سعينا لمعرفة إن كان مثلما ما قالته عنه الادارة الامريكية حين وصمته «بالارهابي» أم أن الله اصطفاه وامتحنه في دينه وايمانه وأكد مصطفى لأكثر من مرة إنه لم يذهب الى باكستان بنية الجهاد او قتال الامريكان وانما تصادف وجوده هناك مع اندلاع الحرب في افغانستان وقال عنه أهل قريته إنه كان إنساناً بكل مقاييس الكلمة يحمل صفات المسلم الخير الذي يهتم بأمر المسلمين وكان يقف على شؤون القرية صغيرها وكبيرها. وأخبرنا كل من علي سن وأحمد العركي أن مصطفى هو من انشأ المسجد الوحيد بالقرية قبل سبع سنوات وعندما رحل تعطل العمل به ولم يكتمل وكذلك ببارة المياه الوحيدة التي تسقي القرية انسانها وحيوانها كان هو من أسسها، وكان يسعى لمعالجة مياهها إلا أن يد القدر إمتدت له قبل أن يكمل مابدأه وأبدو مقتهم للامريكان وقالوا إن حسابهم قد ثقل في صدور الشعوب.

وحدثنا دكتور الوسيلة كيف أن مصطفى كان زميل الصبا والدراسة وحتى المرحلة الجامعية التي لم يكملها لانه كان مهموماً بأسرته، وقال عنه كان كريماً وشهماً، كان يلقب بـ«اللاندروفر» لان لا أحد يستطيع أن يسبقه.

*** رحلة العذاب**

بعد أن عرفنا سيرة مصطفى وقفنا منه على مراحل الابتلاء الذي تعرض له حيث قال بعد أن وصلت الى باكستان في ٢٠٠١ بغرض التجارة أقمت في مدينة بشاور الحدودية وبعد ثلاثة أشهر فقط من وصولي اليها تم اعتقالي من قبل القوات الامريكية التي باعتني اليها المخابرات الباكستانية. ومن هنا بدات معاناتي واحتجزت في قاعدة باغرام العسكرية. ووجدت فيها ومن معي من المعتقلين ألواناً من التعذيب والاهانة لتبدأ المرحلة الثانية من العذاب الذي لا ينسى وهو الرحلة من افغانستان الى كوبا التي كانت ساعات بحساب الزمن وشهوراً بطعم العلقم لنحط في أرض العذاب «جهنم» كما كتب على مدخلها الارض التي أهنا فيها وأهين ديننا الذي حفظه الله في صدورنا.. والحمد لله أن رحلة العذاب هذه جمعتنا بإخوان ربطتنا بهم علاقة أبعد من صلة الرحم إذ لا يوجد معتقل من المفرج عنهم في مكان ما إلا وكان بقية المعتقلين معه لا يتفارقون أبداً وهذه من فضائل الابتلاء.

*** سبع عجاف**

قال دكتور الوسيلة كانت سبع سنين عجافاً من الظلم والاهانة عاشها مصطفى. فدونما ذنب اعتقل ودونما مبرر أو اعتذار أُطلق سراحه.. أما مصطفى فقال كنا في انقطاع تام عن العالم تصلنا أخبار الأهل على فترات بعيدة تقارب العام وتصلهم أخبارنا متى أراد الامريكان وكان ذلك عبر الصليب الأحمر مما صعب علينا وأسرنا الأمر.

وسالته لقد إنهارت احلامك على بوابة باكستان وكانت خاتمة مطافها كوبا هل تبقى لك شيء من طموح..؟ فقال :

لولا الصبر لما وصلت هنا.. لأهلي وعشيرتي ولولا اليقين لما نجحت في الامتحان الذي قدره لي ربي.. وأظن أنني مازالت أقوى على العطاء والعمل والانتاج، وسألت أيضاً أبناء مصطفى عن السنين التي فقدوا فيها دليلهم وعن دراستهم فقالوا تعاون على كفالتهم أهل والديهم غير أنهم تربوا في كنف جدهم لأمهم الذي كان يحبهم جداً ويصرف عليهم بسخاء إلا أن الموت غيبه عنهم، وأضافوا أن أعمامهم وأخوالهم كانوا يوفرون لهم كل شيء المأكل والمشرب والملبس ويعينونهم في دراستهم.. وكانوا يحرزون درجات عالية .. وقالت خولة أنها تتمنى أن تصبح طبيبة في حين قالت عاتقة أنها تود أن تكون مهندسة .

وعدت للسؤال الملح لمصطفى كيف سيبدأ ويكمل مشوار حياته الذي إنقطع مع أسرته سنين عددا تشكلت فيها شخصياتهم بعيداً عنه وما خطط له..؟

.. فرد رداً أحزنني وأشعرني أن الرجل مجروح جرحاً ينزف حاول الهروب به ليخفيه وقال:

لا أدري من أين ابدأ ولا كيف.. ولكن الله وحده يعلم فهو من أعانني على غوانتانامو بلا شك سيعينني على الاندماج مع أبنائي وأكمال رسالتي..

وحاولت أن أخرج من حرج السؤال وحسرة الاجابة فسألت اسرته كيف عرفتم خبر اطلاق سراح مصطفى وعودته الى الوطن ..؟ فقال

سيد مصطفى ابن اخته :

انهم علموا عبر «آخرلحظة» التي كانوا يتلقون خلالها ومنظمة العون المدني أخباره .. و أضاف معتصم الامين شقيق زوجته نحن لم ندع طريقاً إلا وسلكناه من أجل اطلاق سراح مصطفى لأن ذلك هو الذي كان يؤرق ابناءه ويقض مضاجعنا جميعاً فنحن والحمد لله لم يؤثر فينا وضع أبناء مصطفى مادياً انما أرهقنا نفسياً لان الحال كان غير طبيعي..

*** رهبة اللقاء**

وصلنا لأصعب مافي الزيارة ولان المشاعر لا تلخص في دفاتر حصرناها في نقل مشهد صغاره وهم يسرعون نحوه ليحتضنهم وهو يبكي.. كانما يريد أن يعوضهم غياب السنين في لحظة..

وقمة المرارة عندما سألت طلحة كيف عرفت إن هذا هو والدك من بين كل الحضور ؟

أجاب بعفوية الطفولة وبراءتها .. أنا لم أعرفه ولكن الناس قالوا لي (ده أبوك). ولم استغرب العبرة والدموع في عيون الحضور الذين راحوا يهتفون «بوش يا جبان ولد ام ذكرى في الميدان».

أما الوالد مصطفى فإن قلبه كان دليله وقال لي عرفته على التو إنه إبني طلحة الذي لا يخطئه قلبي ونظري.. وكان صعباً مشهد والدة مصطفى الحاجة بتول وهي تجري حافية القدمين لتلاقي إبنها خارج القرية هرولت السيدة المسنة لمسافة أكثر من كيلو متر على أرض أحرقتها شمس صيف يغلي دون أن تشعر بنفسها أو تخشى لسن والمرض .. تدفعها أشواقها هي ووالده ليقف الموكب وينحني تجلة لهذه السيدة المشتاقة لولدها وهي تضرب مثلاً في علاقة الوالد بابنه وراحت تحتضنه وتبكي وتمسك به كأنها تخشى أن يغيب عنها من جديد..

وقلت لها ياحاجة بتول عايزة اتكلم معاك .. فقاطعتني وهي ترد :

أنا فرحانة أنا فرحانة ،بعد سبعة سنين «الليلة يادوبا عيني بتعرف النوم» وراحت تجري في المكان هنا وهناك وكانها طفلة تلعب وتقفز بين أقرانها.. ثم كان المنظر الثالث لشقيقة مصطفى وهي تفقد السيطرة على مشاعرها عندما رأته أمامها فسقطت أرضاً وهي تجهش بالبكاء.